اللّبْس الآتي من التّصريف:

1- اختلاف الأصل الاشتقاقيّ:

إنّ أوّلَ ما استفتح به ابن الأنباريّ إنصافَه مسألةٌ خلافيّة في أصلِ اشتقاق "الاسمِ"، فقدْ ذهب الكوفيّون إلى أنّ الاسم مشتَّق مِن "الوَسْم"، وهو العلامة، أمّا البصريّون فجنحوا إلى أنّه مشتَّقٌ مِن "السّموّ"، وهو العلوّ، ولكلّ فريقٍ حجّتُه، ولستُ أزعمُ أنّ ثَمّ لَبسًا فيما أنا خائضٌ فيه، ولكنْ، ثمّ بونٌ معنويّ مردّه إلى تباينِ وجهِ القولِ على الأصلِ الاشتقاقيّ الذي تنتسبُ إليه الكلمةُ "الاسم".

وإذا ما اعتاصتْ كلمةٌ ما في معناها على دارسِ العربيّة فإنّه يعودُ إلى المعجم لرفعِ هذا الاعتياصِ، ولكنّه قبلَ ذلك يعمل على تجريدِ الكلمةِ ليعيّن الأصلَ الاشتقاقيّ المُسمَّى بالمادّة، وقد يحدثُ أحيانًا أنْ تتمظهر كلمتان في ثوبٍ ظاهريٍّ متماثِل مُلبسٍ يعوزُه مزيدُ مِن الكشفِ والتّنقيرِ، ومِن ذلك "السّائل"، و"الجائر"، و"الزّائر"، والظّاهر أنّ كلّ كلمةٍ ممّا تقدّم آنفًا تنتسب إلى أصلٍ ثلاثيّ معتلّ العينِ، أو مهموزِها، ونواميسُ اللّغة تقتضي عندَ تفريغ هذه المادّة في قالَبِ اسمِ الفاعل أنْ يستويَ الأصلان في هيئةٍ واحدةٍ، مع وجود بَونٍ بينهما عريضٍ، ويبقى هذا النّاموس اللّغويّ النّافذُ مَدخلاً يفضي إلى الولوجِ في مزالقِ اللَّبس في مواضعَ:

سائل زائر

سأل سال زأر زار

جائر

جأر جار

ولو أنّه قيل: **"وقع السّائل على الأرضِ"** لتعيّن مِن هذه الصّيغة المحتمِلةِ معنيان يفيء كلٌّ منهما إلى أصلٍ اشتقاقيّ ممتازٍ عن الآخرِ، فقدْ يكون "السّائل" صاحبَ المسألة، ويَصْدق عليه قولُه -تنزّه-: "وأمّا السّائِلَ فلا تَنهَرْ"، وقد يكونُ ممّا هو كالماءِ، أو الحبرِ، أو الوقود.

ومِن مِثل ما تقدّم: **"ما بال هذا الجائر"**، ولا يخفَى أنّ كلمةَ "جائر" ترتدّ إلى أصلَين متغايرين، فينبني على هذا التّغايرِ تباينٌ في المعنى؛ فقد يكونُ المتعيِّن الجائر مِن "جار"، وقد يكون مِن "جأر".

وعلى صعيدٍ صرفيّ آخرَ، قد يحدث أنْ يوجَد أصلان اشتقاقيّان يتوسّطُ أحدَهما واوٌ، وثانيَهما ياءٌ، فيلتقيا على هيئةٍ واحدةٍ متماثلة عند صوغِ الفعل الماضي، ومِن ذلك: "ضاع"،

و"قال"، و"صار"، فالفعلُ الأوّل ممّا يحلقُ بركبِ الأضّداد؛ ذلك أنّه يقال: ضاعَ الرّجل إذا غاب وفُقِد، و"ضاع" إذا ظهر وتبيّن، ومردّ ذلك إلى البِنيةِ العميقةِ التي تفيء إليها هذه البِنيةُ السّطحيّة؛ ولو أنّ قائلاً قال: **"ضاع المسكُ"**، لكان كلامُه محتمِلاً متردِّدًا بين معنيَين:

- أوّلهما أنّ المسكَ اختفى وفُقِد.
- وثانيهما أنّ رائحتَه ظهرتْ وتبيّنت.

ولا يخفى أنّ مردّ اللَّبسِ إلى اختلافِ الأصلِ الاشتقاقيّ للفعلين المتّفقَين في المبنى، والمفترقَيْن في المعنى، فالفعل في الجملةِ الأولى يرتدّ إلى الأصلِ الاشتقاقيّ: "ض ي ع: ضاع: يضيع". أمّا في المعنى الثّاني فهو مشتقّ مِن: "ض و ع: ضاع: يضوع".

والفعلُ "صار" صيغةٌ سطحيّة لها بنيتان عميقتان، فقدْ يكون الأصلُ الاشتقاقيّ "ص و ر: صار: يصور"، المعنى يُميلُ ويعطف، أو "ص ي ر: صار: يصير"، والمعنى الكلّيّ التّحوّل.

والظّاهر أنّ هذا الذي تقدّم مِن حديثٍ عن "الأصلِ الاشتقاقيّ" أمرٌ واقع في جِبِلّة اللّغةِ، ولذا يستقيمُ أنْ يُقال إنّ اللّبسَ قد يتولّد مِن اللّغة في ذاتِها، وبمُكنة مَن أراد التّعمية والإلباسَ أنْ يستعينَ بهذه المواضعِ وفاءً بِما يصدرُ عنه، فيغدو لسان حالِه كقولِ المُلْغِز:

وَغُلامٍ رأيتُهُ صارَ كَلبًا ثُمّ مِنْ بَعدِ ذاكَ صارَ غَزالاً

ولعلّ مقصدَ الملغِز الأوّل الإبهامُ؛ إبهامٌ على السّامعِ بهذا المعنى القريبِ الذي يَرِد على الخاطرِ، وهو التّحوّل والصّيرورة، وليس ذلك كذلك، وإنّما المعنى: عطفَ وأمال.

2- العَوارض التّصريفيّة:

وإذا ما مضى الباحثُ في تلمُّس النّواميسِ التي تفعلُ في تشكيلِ أبنيةِ الكلمِ فإنّه سيجدُ أنّ للعوارضِ التّصريفيّةِ يدًا في اجتماع قالَبَين على مبنًى واحدٍ، وافتراقِهما في المعنى، ومِن ذلك ما يَرِد على أهل اللّغة ممّا هو مِن قِبَل "مرتَدّ"، ولا يخفى أنّه يلتقي على هذه الصّيغةِ معنيان متضادّان: أحدُهما اسم الفاعلِ، وثانيهما اسم المفعولِ، وعلّة ذلك أنّها تنتسب إلى أصلٍ عينُه ولامُه متماثلان؛ وذلك نحو: "عدّ"، و"شدّ"، و"سنّ"، ولمّا كانت القاعدةُ العريضةُ لصوغِ اسم الفاعلِ مِن غيرِ الثّلاثي مؤدّاها ضمّ أوّله، وكسرُ ما قبل آخرِه، تعيّن أنْ يكونَ اسم الفاعلِ في بنيته العميقةِ: "مُرتَدِد"، وتعيّن أنْ يقفَ وجاهَه اسم المفعولِ الذي هو "مُرْتَدَد"، ولكنّ النّواميسَ التي يُحتكَم إليها في تشكيلِ أبنيةِ الكلم تأبى هذا؛ ذلك أنّه يُستثقَل الجمعُ بين صوتَين مِن جنسٍ واحد، "فأسكنوا الدّال الأولى، وأدغموها في التي بعدها"، فتشكّلتْ صيغةٌ واحدة يقعُ تحتها معنيان متضادّان. إنّ مردّ ذلك إلى الإدغامِ.

لنَرْجع النّظرَ في الجملِ الآتيةِ:

1. **لا بدّ مِن معاقبة المرتدّ عقابًا أليمًا.**
2. **علمت بأنّ المقتصّ منه مظلوم.**

3. **هذا المعلّم صاحب نظر مُمْتَدّ.**
4. **إنّ المحتلّ لا يهدأ له بال.**

لعلّ السّياق البِنيويَّ في الجملةِ الأولى يوحي إلى الخاطرِ ترجيحًا مفادُه أنّ المعنى المتعيّن مِن "المرتدّ" هو اسم الفاعلِ، وهو كذلك حقًّا، أمّا الجملة الثّانيةُ فلا لَبسَ فيها ولا احتمال، ولا يُنسَى فضلُ الجارّ والمجرورِ في تعيينِ معنى اسم المفعولِ. أمّا الجملةُ الثّالثة فهي محتمِلة؛ فقد يكون المتعيّن أنّ المعلِّم ذو معرفةٍ ونظر "مُمتدِد"، أو"مُتدَد"؛ أي ممدود. والجملةُ الرّابعة كما الثّالثة؛ ذلك أنّ "المحتلّ" صيغةٌ متردِّدة بين المعنيين معًا.

ومِن مِثل ما تقدّم ما يحدثُ عند تشكيلِ اسم الفاعلِ والمفعولِ مِن الفعل "ازداد" ونحوِه، فبالعَود على القاعدةِ العريضةِ التي يُحتكَم إليها في تشكيلِ اسمِ الفاعل مِن غيرِ الثّلاثيّ، نجد أنّ "المُدّكَرَ" اسم مفعولٍ، و"المُدّكِرِ" اسم فاعلٍ، وأنّ "المُزداد" تتردّد بين ذَيْنِكَ المعنيين؛ إذْ إنّها ترتدّ إلى بِنيتينِ عميقتَين، وهما مُزدَيَد" و"مُزدَيِد"، وعلّة ذلك أنّ النّواميسَ التي تفعل في تشكيلِ أبنيةِ الكلم تقتضي أنْ يستويَ هذان اللّفظان "مُزدَيِد" و"مزدَيَد" لاعتلالِ الياءِ في لَبوس كلمةٍ واحدةٍ، ولذا تُقلَب الياءُ ألفا ليُعْقِب هذا القلبُ الآتي مِن الإعلالِ اشتباهًا في صيغتَين متّفقتين في المبنى، ومفترقتَين في المعنى:

1- أمرَ المختارُ أهل القرية بالتّكافل.

2- شرع العقيد المختار باختيار الجنود.

إخال أنّ السّياقَ البنيويَّ، وما تعارف عليه أهلُ البيئةِ الكلاميّةِ، يُفضيان إلى الاعتقاد بأنّ المتعيّن مِن "المختار" هو اسم المفعولِ في الجملةِ الأولى. أمّا "المختار" الثّاني فهو مُشتبِهٌ بين المعنيَين، فقدْ يكون المتعيّن أنّه هو الذي يَختار مِن الجنودِ مَن أراد، وقدْ يكونُ الأمر بالضّدّ، فهو العَقيد الذي اختاره مَن هو أعلى مِنه. أمّا المثال الثّالثُ، فالمتعيّن مِن المُنتاب ظاهر؛ ذلك أنّ سياقَ القصيدةِ يشي بذلك، وهو اسم الفاعلِ. أمّا في الجملةِ الرّابعةِ فالدّلالة محتمِلةٌ، فقدْ يكون معناها الكلّيّ التعجّبَ مِن شدّة الألمِ الذي يقاسيه مَن وُضِع في معرِضِ انتيابٍ، وقد يكون التعجّبُ باعثه الألمُ المتحصّل ممّن صنعتُه الانتياب والتّجريح.

عَودًا على نواميسِ تشكيلِ أبنية الكلم؛ فقد تؤْذِن باشتباهِ القوالب المسبوكةِ على وزنِ "يفاعل" ممّا عينه ولامُه متماثلان، ومِن ذلك: "يُشادّ"، و"يُضارّ"، و"يُحاجّ"، ولو أنّه قيل: "يُقاتل" لكان اسمُ الفاعل "مقاتِلاً"، واسم المفعول "مقاتَلاً"، والفعلُ المبنيّ للمجهول "يُقاتَل"، ولكنّ إدغامَ الصّوتين الأخيرَين يؤذنُ بتعذّر ظهورِ الصائتِ الذي نحتكم إليه في تعيينِ معنى

القالَبِ، فلو أنّه قيل: "يُشادّ" لكان الفعلُ متردِّدًا بين المبنيّ للمعلومِ والمبنيّ للمجهولِ، وكذلك "يُحاجّ" و"يضارّ" وأضرابهما، ولو أنّه عُدِل إلى نواميسِ التّشكيلِ؛ تشكيلِ اسم الفاعلِ والمفعولِ، لاستبهمتْ الصّيغة المتشكّلةُ فغدتْ متردِّدة بين المعنيين، ومِن ذلك "المُشادّ"، وهي ترتدّ إلى بِنيتَين عميقتَين هما: "المُشادَد" و"المُشادِد"، وعلّة خفاءِ هذه العلامةِ الفارقةِ هي العلّة التي تقدّم ذكرُها آنفاً؛ إذ إنّ إدغام الصامتَين المتماثلين يفضي إلى توحُّدِ صيغتَي المبنيِّ للمعلوم والمبنيِّ للمجهولِ في صيغةٍ واحدةٍ، وكذلك الحال في اسمِ الفاعلِ واسمِ المفعولِ:

1- سلطان هذا المُحاجِّ وامٍ.

2- لا أرضى لأحد أن يُشادَّ.

كلتا الجملتَين مُلْبِسة، فالأولى تحتمل أنْ يكون المُحاجّ اسمَ فاعلٍ، أو اسم مفعول، والثّانية تتردّد بين كون الفعل "يشادّ" مبنيًّا للمعلوم "يشادِد"، ومبنيًّا للمجهول "يُشادَد".

ومِن العوارض التّصريفيّةِ التي تؤذِن باشتباهِ الكلم وتداخلِه عارضُ الجمع، كأنْ تستويَ كلمتان ظاهريًّا، ولكنّ إحداهما جمعٌ، وأخراهما مصدر، ومِن ذلك قولُنا: "ظهور"، فهي مصدر "ظَهَر"، وهي جمع "ظَهْر"، والذي أذِن بهذا التّداخل المُلبِس هو العارضُ التّصريفيّ "الجمع"، ومثلها "الشّباب" المحتمِلةُ للمصدر والجمع، أعني جمع "شابّ"، وكذلك "الخِصام"، فهي مصدر "خاصَمَ" مُخاصمةً وخِصامًا، وهي جمع "خَصيم"، ككَريم وكِرام، و"النُّذُر" جمع نَذير، وهي بمعنى الإنذار.

1- ينبغي لشباب اليوم أن يكونوا على وعي بقضايا السلام.

2- ما أجملَ أيامَ الشّباب.

يظهر مِن الجملة المبتدَأ بها أنّ "الشّباب" جمع لا مصدرٌ؛ ذلك أنّ ورود ضمير جمع عائد عليهم يعمل على رفع الاشتباهِ، وهنا تتجلّى قيمة السّياق البِنيويّ في تحديد كثيرٍ ممّا يَشْتَبِهُ، ولكنّ الثّانية مُلبِسة حقًّا؛ إذ "الشّباب" متردّدة بينَ معنيَين صَرفيَّين، وهما "الجمع" و"المصدر"، والحقّ أنّ هذا اللّبْس قد يتجلّى حتّى مع توافرِ سياق جُمْليّ، بلْ حتّى مع توافر سياق الحالِ.

وممّا ينضاف إلى العَوارض التّصريفيّة حذف التّاء المفضي إلى تردّد الفعلِ بين المضيّ والمضارعةِ؛ وذلك نحو "تَلظّى"، و"تَمنّى"، و"تَغيّظ"، وهذه -فيما يبدو من نظر بَرّانيّ خاطف– أفعالٌ ماضية، وقد تكون مضارعة، والتّاء محذوفة، والمعنى: "تتلظّى"، و"تتمنّى"، و"تتغيّظ"، والحقّ أنّ السّياق البنيويَّ كفيل أمينٌ لرفع هذا الاشتباهِ، ولكنّه يُقصّر أحيانًا، فيعقب هذا التّقصيرَ اشتباه ولبسٌ محتمِلان على النّحوِ الآتي:

1- علمتُ بأنكم تَمَنّوْن الظّفر.

4- طربت إذ سمعت هديل حمامتَين تَجاوَبانِ.

5- "فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنّ اللهَ عَليمُ بِالمُفسِدينَ".

يظهرُ مِن الجملة الأولى أنّ التّاء حُذفت، والتّقدير "تتمنّوْن"، وليس يستقيم إلاّ هذا الوجه؛ ذلك أنّ السّياق البنيويّ هو المقرِّر والمُحتكَم، و"تَمَنَّوْن" تدلّ دلالة صريحةً على أنّها فعل مضارع اطُّرحت تاؤه. أمّا الرّابعة فالسّياق البِنيويّ كفيل بتعيينِ زمن الفعلِ، وهو "تتجاوبان". أمّا قوله –تبارك-: "فإِنْ تَوَلّوْا..." فهو ذو دلالةٍ صريحةٍ على ما أنا خائض فيه مِن الاحتمال وتعدّدِ المعاني؛ ذلك أنّ "تَوَلّوْا" قد يكون ماضيًا، وبهذا يتقرّر أنْ لا شيءَ محذوف البتّة، وقد يكون مضارعًا، فيتقرّر أنّ ثَمّ تاءً محذوفة من أوّله، والمعنى: "فإن تَتولَوْا. أمّا قولُه: "تَمنّى ابنتاي" ففيه خلاف، فإذا ما قُدِّر الفعل مضارعًا، أي: "تتمنّى"، فلا ضرورةَ فيه، وإذا ما كان بالضّدّ ففيه ضرورة.

3- اشتباه الصّفة بالعلمِ، والمصدرِ بالاسمِ:

وعلى صعيدٍ صرفيّ آخرَ، قد يحدث أنْ يقع اشتباهُ باعثه تداخلُ بين الصّفة والعلمِ، والمصدرِ والاسم، ولعلّ العلّةَ الرئيسةَ أنّ المشتقّاتِ؛ كالصّفةِ المشبَّهة، وصيغةِ المبالغة، واسمِ الفاعل، واسم المفعولِ، قدْ تخرج مِن دائرة الوصفيّةِ إلى دائرة العَلَميّة، ومِن ذلك "حَسَن"، و"ماهر"، و"كريم"، و"ناصر"، و"خالد"، و"فاطمة"، وممّا ورد عليَّ في هذا المِضمار أنّ أستاذًا لنا كَلّف أحدَنا النّظر في مسألةٍ لغويّة، فاستعان الزّميل بكتاب حقّقه "السّيّد أحمد صقر"، ولمّا ساءله الأستاذ فيما كَتَب ذَكَر أنّه أفاد مِن كتاب حقّقه "أحمد صقر"، فأنغض الأستاذ رأسَه، مستنكِرًا عليه قولَه قائلاً: "هو السّيّد أحمد..."، فعقّب الزّميل باعتذارٍ وفضل بيانٍ مضمونهما أنّه تجافى عن ذكرِ الألقاب العلميّةِ والاجتماعيّة في التّوثيقِ والدّرس؛ فارتسمتْ بسمة على وجهِ ذلك الأستاذ إذْ عَلِم أنّ الزّميل لم يقتنص مُرادَه، ولم يُرفَع ذلك اللّبسُ إلاّ لمّا قال الأستاذ إنّ كلمة "السّيّد" اسمُه الأوّل، وليست لقبًا يتقدّم اسمَه.

ومن مِثل ما تقدّم:

1- كان السّائق ماهرًا.
2- هذا حسنٌ.
3- وقد علمت بأنّه خالدٌ.
4- إليك يا ناصرَ الدّين.
5- مررت بمدرستي الحميدةِ.

أحسب أنّ هذه الأمثلةَ المصنوعة تدلّ على موضعٍ مرشِّح للولوج في مزالقِ اللّبس، ففي الجملة الأخيرةِ قدْ يكون القائل مشغوفًا بمدرسته، ممجِّدًا لها، فتنتقلُ مكنونات النّفس هذه إلى جلّيات الألفاظِ، فتكون الحَميدةُ صفةً أسبغها الطّالب على مدرستِه لا اسمًا يتلبّسها. وفي سياقٍ آخرَ قد يكون للقائلِ مدرسةٌ اسمها الحميدة، وقدْ مرّ بها دون أن يَعوج، أو يسلّم، أو يمجّد، فكانت جملتُه إخبارًا ليس غير. وكذلك الحال في الجملةِ السّادسة، فقدْ يكون "ناصر الدّين" لقبًا يتلبّس به صاحبُه، أو يُضفَى عليه، وقدْ يكون اسمًا حقيقيًّا كمحمّدٍ، أو أحمدَ.

أمّا التّداخل الواقعُ بين الاسمِ والمصدر فمِن أمثلتِه:

1- هاتِ الخيلَ والرّباط.
2- هذا رباطٌ جيد.
3- قضيت إجازة الفصل الصيفيّ على شاطئ حيفا.
4- ما أقبح هذا الفصلَ!

الرّباط" كلمة متردّدةٌ بين معنَيين صرفيّين، وهما المصدر المأخوذُ مِن "رابط رباطًا ومرابطة"، والاسم، والسّياقُ في الجملةِ الأولى يرجِّح كونها اسمًا لِما يُربَط به كالحِزام. أمّا في الجملةِ الثّانية فدِلالة هذه الكلمةِ مفتوحةٌ على المعنيين الصّرفيّين. والجملة الثّالثة تقتضي أنْ يكون "الفَصل" اسمًا لِما تُعورف عليه مِن فصول الدّراسةِ الجامعيّة. أمّا الجملة الرّابعةُ فالفصل متردّد بين المصدرِ والاسم، فقد يكون فَصلاً دراسيًّا، أو فصْلاً مِن كتاب، وقدْ يكون مصدرًا كالضّرب، والقتلِ، والقطع.

4- اشتباهٌ في بعضِ الفصائل النّحويّةِ:

وقد يحدثُ أنْ يُعطَّل القولُ بفضل الفصائلِ النّحويّة في إقامةِ الفروق الدّلاليّة، كأنْ توجَد كلمةٌ تصلح للخطابِ والغَيبة معًا، أو التّذكير والتّأنيث، وقد يحدث اشتباهٌ في العددِ المتعيّن، والحقّ أنّ السّياقَ البِنيويّ يعمل على رفعِ جلّ مظاهرِ الاحتمالِ الآتيةِ مِن هذا الباب،

ولكنْ، قد يعرض على أبناءِ اللّغة شيء منه؛ ومن ذلك قولنا: "تَحْمِل"، فهي صيغةٌ مترددّة بين التّذكير والتّأنيثِ، والخطاب والغَيبة، والسّياق هو المحتكَم، فلو قيل:

هي تحمل

أنت تحمل

لبدتْ "تحمل" في الأولى للغَيبة والتّأنيثِ، وفي الثّانية للخطابِ والتّذكير.

ومِن مثلِ ما تقدّم: "سَمِعْتُما"، وما جرى مَجراها؛ إذ إنّها دالّة على استيعابِ الجنسين؛ التّذكيرِ والتّأنيث، فقدْ تكون لمخاطَبَيْن، أو لمخاطَبَتَيْن، ومثلُها "تَسْمعان" وما يجري مجراها، ففيها يتوحّد الجنسان، فقد تكون لمخاطَبين أو لمخاطَبتين، وقد تكون للمؤنّث في غَيبته: "هما تَسمعان". و"سمعنا" يتوحّد فيها العدد، فلا يكادُ يظهر إلاّ في السّياق؛ ذلك أنّها مشتمِلة على الاثنين والجميعِ.

لنَرْجِع النّظر فيما يأتي:

1- ذات يوم ذهبنا لنلعب كرة القدم.
2- سمعتكما وأنتما تنشدان.
3- لن تذهب حتى تلاقيَ محمدًا.
4- ليس ثَمّ بدّ من أن تكلّم أبناءها.

لو أنّ سامعًا ورد على الجملةِ الأولى، وهي مجرَّدة مِن سياقها لبدا له أنّها مُلبسة في دِلالتِها على العدد، فقد يكون الفعل للاثنين، وقدْ يكونُ للجميع، أمّا الجملة الثّانية فهي محتمِلة ملبِسة في الإبانةِ عن الجنس، فقدْ يكون مذكّرًا، وقد يكونُ مؤنّثاً. أمّا الجملةُ الثّالثة فالفعلُ "تلاقي" ملبِس أيضًا؛ ذلك أنّه متردِّد بين الدّلالةِ على الخطابِ والتّذكير، أو الغَيبة والتّأنيثِ، ولست أرى أنّ اللَّبْس آتٍ مِن مرجع الضّمير المستتر في هذا اللّبس الصّرفيّ النّحويّ؛ ذلك أنّ الصّيغة نفسَها محتمِلة مشترَكة بين ذَيْنِك المعنيين، فنحن نقولُ: أنتَ تلاقي، وهي تلاقي.

ولمّا كانت الصّيغة مشترَكة بين الخطاب والغَيبةِ، والتّذكير والتّأنيث، أذِن هذا بتباين وجه القولِ على مرجع الضّميرِ، فليس السّبب ناشئًا مِن توهّم مرجع الضّميرِ، بل هذا الأخير ناشِئٌ عن العلّةِ الأولى. ونظير ما تقدّم الجملة الرّابعة، فالفعلُ فيها "تُكلّم" متردّد بين الخطابِ والتّذكير، والغَيبةِ والتّأنيث، وكلاهما متقبَّل في سياقِ الجملة.

ومِن أمثلة ما تقدّم قولُه -تنزّه-: "وَأَلْقِ ما في يَمينِكَ تَلقَفْ ما صَنَعوا"، فالفعلُ "تَلْقف" محتمِل لمعنيَين صرفيّين متضادَّين:

- أوّلهما الخطاب والتّذكيرُ، وبهذا يكون الفاعل "موسى" عليه السّلام.

- وثانيهما: الغَيبة والتّأنيث، وعلى هذا التّقدير تكونُ العصا فاعلاً.

5- في معاني الأفعالِ:

لعلّ أخطرَ ما يَرِد على ابن العربيّة مِن لَبس في هذه المباحثةِ شيئان: أوّلهما أنْ يكونَ لقالبِ الفعل معنيان أو معانٍ متضادّة، فيغدو القالَب التّصريفيّ الذي نُنْزل فيه مِن الموادّ ما شئنا كالجَوْن أو المولى، وثانيهما –وهو متّصل بسابقِه بلُحمةٍ حميمة– أنْ يَسْلب القالبُ التّصريفيّ معنى المادّة المُنْزَلة فيه، فيحدث تنازعٌ في الخاطر بين معنى المادّة المُنْزَلة فيه(أعني القالب)، ومعنى القالبِ الذي ينفي هذا المعنى المُنْزَل، فتتخلّق مَظِنّةٌ مرشّحة لبعثِ اللّبسِ، وقدْ تقدّم قبْلاً أنّ للأفعال معانيَ متعدّدة، والحقّ أنّ اللّبس قد ينشَأ مِن هذا التعدّدِ، ولعلّ في المثال الآتي فضلَ بيان يجلّي ما تقدّم:

مِن معاني القالب التّصريفيّ "تَفَعّل" مطاوعةُ "فعّل"؛ وذلك نحو كسَّرتُه فتكسّر، والحرصُ على الإضافة؛ وذلك نحو تحلّم وتقيّس، وأخذُ جزءٍ بعد جزء، ومنه تَجرّع وتنقّص، والتكثيرُ، كقولنا: تعطّى، والتّركُ، ومنه: "تأثّم" و"تحوّب"، أي تركُ الإثم والحوب، والملاحظ أنّ ثمّ معنيَين متقابلَين يكتنفان القالبَ "تفعّل"، وهما التّرك والإضافةُ، ولو أنّه قيل: تأثّم الرّجل: لتردّد السّامع بين معنى تركِ الإثم وإتيانِه، وبذا نقع في تضادّ تصريفيّ مردّه إلى أنّ القالَب "تفعّل" يحتمل معنيين متضادّين، ومثلُها "تحنّث" إذا أتى الحِنث، أو إذا اجتنبه.

والقالَب التّصريفيّ "أفعل" له معانٍ متعدّدة، ومِن ذلك أنّه يدلّ على التّعدية؛ وذلك نحو "أجلسته"، والتّعريضِ، ومِنه "أبَعْته" و"أقْتَلته"، والاستحقاقِ، ومِنه "أَحْصَد الزّرع"، والوجود؛ وذلك نحو "أَحْمَدته"، أي وجدته محموداً، والظّاهر أنّ هذه المعانيَ تتداخل تداخلاً يفضي إلى توهّم معنى القالَب التّصريفيّ، ومِن ذلك "أشكيْتُ الرّجل" إذا أزلت شكواه، أو إذا أحوجته إلى الشِّكايةِ، و"أفزعت القومَ" إذا أحللتُ بهم الفزع، أو إذا أحوجتُهم إلى الفزعِ، و"أودعت فلانًا مالاً": دفعته إليه وديعةً، وأودعتُه: قبلتُ وديعتَه. ولا ينُسَى أنّ مِن معاني "أفعل" الوجودَ والإصابة، فإذا قيل: "وعدني الرّجل فأخلفتُه" فإنّ هذا القالَب "أخلفته" متردّدٌ بين معنيين متضادّين:

- أوّلهما: وجدتُه مُخْلِفًا، وهذه هي الإصابةُ.
- وثانيهما أنّني أنا الذي لم يفِ بالوعد.

1- جاء الرّجلُ قومه فأضلّهم.

2- أتيت الأرض فأحييتُها.

3- ذهبت إلى البيت فأخليتُه.

إنّ القالَب التّصريفيَّ المتكرّرَ في الجملِ المتوالية يحتملُ معنيَين، ففي الأوّل معنى الإصابةِ، أي: وجدهم ضُلاّلا، وفي الثّاني التّعريض، أو مِن باب "أفعلته ففعل". وكذلك الجملةُ الثّانية والثّالثة، فقدْ يكون المعنى: وجدتُها حيّة، ووجدتُه خاليًا، وقدْ يكون كما في الجملةِ الأولى.

6- تناوبُ الصّيغِ واشتراكُها:

وممّا ينضاف إلى ما تقدّم ملحظُ تناوبِ الصّيغ واشتراكِها، فإذا ما أنعم المرء النّظرَ في قوالبِ العربيّة واستعمالاتِها فإنّه سيجدها تلحقُ بالمشترَك اللّفظيّ؛ كالعينِ التي يقع تحتَها معانٍ، ومردّ ذلك إلى أنّ لكثير مِن القوالب تلك معانيَ متباينةً، ومِن ذلك:

- "مَفْعَل"، فهذا قالبٌ يجتمع عليه اسمُ الزّمان، واسم المكان، والمصدر الميميّ، ولذلك فإنّ "المَقْتَل" لفظ يتردّد بين المحتمِلاتِ المتقدِّم ذكرُها.
- و"المَفْعِل" قالب يلتقي عليه اسمُ الزّمان، والمكانِ، والمصدر الميميّ أيضًا.
- وكلّ قالَب ضُمّ أوّله وفُتِحَ ما قبل آخره مِن غير الثلاثي يلتقي عليه اسمُ الزّمان، واسمُ المكان، واسمُ المفعول، والمصدر، ومِن ذلك "مُقتَتَل".
- و"فَعيل" قالَب يستوعِب المصدرَ، والصّفة المشبّهة، وصيغةَ المبالغة، وقد يكون بمعنى اسمِ الفاعل، أو اسمِ المفعول، وقد يتردّدُ بين الاثنين.
- و"فَعول" يفيد المبالغةَ، والصّفة المشبَّهة، وقدْ يكون بمعنى اسمِ الفاعل، واسمِ المفعول، وقد يحتمل المعنيين معًا.
- و"أفْعَل" يأتي صفةً مشبَّهة، وللتعجّب، والتّفضيل، ويأتي فعلاً.
- و"فَعّال" قدْ يدلّ على المبالغةِ، والنّسب، والحِرفة.
- و"فاعِل" يقوم مَقام المصدرِ، واسم المفعولِ، والنّسب.
- و"مَفعول" ينوب مَناب المصدرِ واسم الفاعلِ.

لننظرْ في الأمثلة الآتيةِ بيانًا وتمثيلاً لما تقدّم:

1- هذا رجل قدير على اللّجاجة والبيان.
2- نعمل على تحرير الوطن السّليب.
3- أسماؤكم عندي في ملفّ حفيظ.
4- كيف يرضى هذا التّبيع الاستعباد.

يتكرّر في هذه الجملةِ القالب التّصريفي "فَعيل"، وهو في الجملةِ الأولى غير محتمِل؛ إذ إنّه جاء صفةً مشبَّهة، والمعنى الكلّيّ قريبٌ مِن اسم الفاعلِ. أمّا في الجملةِ الثّانية فقدْ قام القالَب "السّليب" مقام "المسلوب"، والمعنى أنّه اسمُ مفعول. أمّا في الثّالثةِ فالأمر مغاير؛ إذْ إنّ هذا القالبَ يتردّد بين معنى اسمِ الفاعل واسم المفعول، وكلاهما متقبَّل، فقدْ يكونُ الملفّ

محفوظًا، وقد يكونُ حافِظًا للأسماءِ، والأمر كذلك في الجملةِ الأخيرة؛ إذْ إنّ "التّبيع" تحتمل أنْ يكونَ التّابع، أوْ أن يكونَ المتبوع، وتكون الجملةُ عمادُها التعجّب مِن المتبوع الذي يرضى لغيره المهانةَ والاستعباد، أو التعجّب مِن التّابع الذي هانتْ عليه نفسه، فرضي بالذلّ والهوان، وقدْ صَدَق ابن الأنباريّ لمّا جعل بعض الكلماتِ التي أُنْزِلت في هذا المُنْزَل "فَعيل" مِن الأضّداد.

وعلى صعيد صرفيٍّ آخرَ قد تقوم "فَعيل" مقام " مُفْعِل" و "مُفْعَل"، ومِن ذلك:

1- هذا جرح أليم "مُؤلِم".

2- محمّد صاحب رأي حكيم "مُحْكَم".

ولكنّ بعضَ الصّيغ قد تتردّد بين هذين المعنيين؛ أعني الفاعليّةَ والمفعوليّة، ومِن ذلك "السّميع" تقال للذي يَسْمع، وقد تقال للذي يُسْمِع غيرَه، والمعنى: مُسْمِع، والأمينُ ممّا يقع فيه تضادّ معنويّ، وليس مردّ ذلك إلى الأصلِ الاشتقاقيّ، بلْ مردّه إلى القالَب المحتمِلِ؛ فإذا ما قيل: "فلان أميني"، فقدْ يعني أنّه مُؤتَمِني، أو أنّه الذي أتّمنه على أمري.

وقالب "فَعول" يفيد معانيَ متعدّدة، والولوجُ في اللَّبس حادث عند اشتمالِه على معنيَين متضادّين، وفي الأمثلةِ الآتية بيانٌ:

1- إنّ الله غفور رحيم.
2- ذاك ولد عَجول.
3- اربأ بنفسِك أن تكونِ زَجورًا.
4- لا تصاحب مَن هو فَجوع.

تبدو الجملةُ الأولى جليّةً غير ملتبسةٍ؛ ذلك أنّ "غفورًا" في سياقِها تدلّ على معنى اسمِ الفاعل، "ورحيمًا" -وهي على وزن فَعيل– لا تحتمل أنْ تكون بمعنى اسمِ المفعول البتّة، وكذلك الجملة الثّانية. أمّا الثّالثة ففيها احتمالٌ مردّه إلى أنّ القالَب التّصريفيّ يأتي بمعنى اسمِ الفاعلِ واسم المفعول معًا، وقد يكون المتعيِّن مِنها نهيًا عن أنْ يرضى الإنسانُ لنفسِه أنْ يكونَ زاجرًا منّاعًا للخير. وقدْ يكون الأمر بالضّدّ؛ كأنْ يكتنفَها نهيٌ عن أنْ يرتضيَ المرء أن يكونَ مزجورًا ذا هَوان. أمّا الجملة الرّابعةُ فهي محتمِلة احتمالَ سابقتِها؛ فالفَجوع تحتمل اسم الفاعلِ واسم المفعول معًا. وقالب "مَفْعَل" تجتمع عليه معانٍ صرفيّة متنوّعة، ومِن ذلك:

1- انتظرتك حتّى مَطلَعِ الشّمس.
2- وَقالوا لَها لا تَنكحيهِ فَإنّه لأوّل سَيفٍ أنْ يُلاقيَ

جاء القالب "مَفْعَل" على معانٍ صرفيّةٍ متعدّدة مع توحّد رسمِه، ففي الجملة الأولى يحتمل أنْ تكون دلالتُه المصدرَ الميميّ، والمعنى: انتظرتُك حتّى طلوعِ الشّمس، ويحتمل أيضًا أنْ تكونَ اسم الزّمان. أمّا البيتُ الثّاني فهو ملبِس؛ ذلك أنّ "المَصْرَع" يجوزُ أنْ يكون مصدرًا، ويجوزُ أنْ يكون اسمَ المكان الذي يُصرَع فيه.

و"المَفْعِل" قالب مرشِّح لغيرِ معنًى صرفيّ، فقد يستوعب اسمَ الزّمانِ والمكان، والمصدرَ، وممّا جاء مستوعبًا لهذه الوجوه معًا قولُه -تنزّه- في التّنزيل العزيزِ: **"فَاجْعَلْ بَيننَا وبَينَكَ مَوعِدًا لا نُخلِفُه نَحنُ وَلا أنتَ مَكانًا سُوى"**، فالمَوْعِد في هذا السّياق الشّريفِ:

- مُحتمِل للمصدر، ويعضد هذا قولُه -تنزّه-: "لا نُخْلفه نحن ولا أنت".
- ومحتمِل للزّمان، ويعضدُه: "قال موعدكم يوم الزّينة".
- ومحتمِل للمكان، ويعضده: "مكانًا سوى".

وضَمّ الأوّلِ، وفتحُ ما قبل الآخِرِ مِن غير الثّلاثيّ يُؤْذن بتداخلِ اسم الزّمانِ، والمكان، والمفعول، والمصدرِ، كما تقدّم قَبلاً، ولا يخفى أنّ هذه النّواميسَ التي يُحْتَكَم إليها في استعمالِ القوالب لدلالاتِها، واشتقاقِ بعضها مِن بعض، تعملُ على خلقِ اللّبس، وتعدّد المعاني.

وقالبُ "أَفْعَل" مُشتَرَك صرفيّ، فقدْ يكون صفةً مشبَّهة؛ وذلك نحو: أعمى وأحمق، وقدْ يدلّ على التّفضيل: "محمّد أذكى مِن سعيد". وقدْ يحدثُ اشتباهٌ في تردّده بين هذه المعاني في قالبٍ واحدٍ، ومِن ذلك:

1- أنا أعلمُ بالجادّ والمتراخي.

وقدْ يكون المُبتغَى من الجملة الأولى تقريرًا بِعلم القائلِ بالجادّ والمسؤول، وليس المَقصِد أنْ تُعْقَد مفاضلةٌ بين اثنَين قد اشتركا في صفةٍ واحدة، وقد زاد أحدُهما على الآخَر، وليس ثَمّ شيء محذوفٌ مِن الجملةِ، ولعلّ هذا يُفضي إلى أنْ يكونَ معنى هذا القالَب "أعلم" مؤوّلاً بالصّفة المشبَّهة، أي: أنا عالمٌ بالجادّ والمتراخي، وقدْ يكون المبتغَى المفاضلةَ، وقد اجْتزِئَ مِن السّياق البنيويّ، والتّقدير: أنا أعلمُ بالجادِّ والمتراخي مِن فلانٍ أو غيري...وقدْ يكون "أعلم" في هذا السّياق فِعلاً مضارعًا مثل "ألعب"، و"أدرس".

ولعلّ هذا الذي أنا خائضٌ فيه يفسِّر قولَ المتنبّي:

ابْعَدْ بعدتَ بَياضًا لا بَياضَ لَه لأَنْتَ أَسْودُ في عَيْني مِنَ الظُلَمِ

وقدْ خُطّئ في هذا البيتِ؛ ذلك أنّ التّفضيل مُمتنِع في الألوانِ مِمّا هو على وزنِ "أفعل"، والصّحيح أنّ القالب "أسود" في سياقه البنيويِّ قد يُحمَل على مَحْمِلٍ آخرَ يُفضي

بالمتتبّع اللّغويّ إلى أنْ يتجافى عن التّخطئةِ؛ إذ إنّه قد يكون صفةً، كقولِنا: أحمر، وأخضر، وأسود، وتكون "من الظُّلَم" في هذه الحالِ صفة لأسود؛ والمعنى أنت أسودُ كائنٌ مِن الظُّلَم، وليس يصحّ في هذا التّأويلِ المُعْجِب أنْ تكون "مِن" الحرفَ الذي يلازم التّفضيل، مع اعتقادي بأنّ المعنَيين بعيدان عن الهُجْنةِ المُستقبَحة، واللّحنِ المرذول، ولعلّ الجملةَ المصنوعة الآتية تجلّي ما تقدّم:

هذا ورقٌ أحمرُ مِن الوَرد

فقد يقولُها المتكلّم وهو لا يريدُ المفاضلةَ، بلْ يقرّر للسّامعِ بأنّ لون الورقِ الذي هو بيديه أحمر، وأنّه مصنوع مِن الورد، أو هو أحمرُ بسببٍ مِن الوردِ، وإخال أنّ هذا التّقدير؛ تقديرَ الصّفة لا التّفضيل يجعلني أتقبّل بيتَ المتنبّي وفي نفسي كثيرٌ مِن الإعجاب، فهو الذي ينام ملء جفونِه عن شواردِها، "ويسهرُ الخلق جرّاها ويختصمُ".